بين الرحمن ومالك يوم الدين

ثنائية العدل والرحمة في سورة الفاتحة

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في صمت الليل، حين تسكن الأرواح وتهدأ النفوس، يستيقظ القلب على همسات خفيّة تتردّد في أعماق الوجود، فتنفتح أبواب السماء لتستقبل الأرواح العطشى، فتأتي سورة الفاتحة كجسر روحيّ يربط بين ضعف العبد وعظمة المعبود، بين تراب الأرض وملكوت السماء.

وهنا، في هذا اللقاء بين الروح وخالقها، تتكشّف حقيقة عجيبة تربط بين الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ الذي يحتضن خوف العبد برحمة لا تنتهي، ومَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ الذي يرتبط ذكره بعدالة لا محاباة فيها، فيجد نفسه محاطًا بثنائية مقدّسة تحمل في طيّاتها سرّ التوازن الكوني، فما بين رحمة تشع أملاً، وعدل يبعث مسؤولية، يعيش القلب بين جناحي الخوف والرجاء في رحلة روحية لا تنتهي نحو الكمال.

وهنا تتجلّى هذه الثنائيات في سورة الفاتحة، "أم القرآن" وفاتحة الكتاب المبين، وترتبط بها حكمة بالغة في ترتيب الأسماء الحسنى وتسلسلها، بشكل يحمل في طياته منهاجًا متكاملاً للحياة الروحية، فبين قوله تعالى: "الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ" (الآية 3)، وقوله: "مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ" (الآية 4)، تتكشّف ثنائية عميقة الدلالة؛ فالرحمة التي تسبق والعدل الذي يحقّ، وهذا التوازن الإلهي الدقيق يرسم للإنسان خارطة طريق روحيّة تجمع بين الرجاء والخوف، بين الطمأنينة والمسؤوليّة، بين العفو والجزاء، فهي ليست مجرّد أسماء تتوالى، إنّما هي منظومة متكاملة تعكس طبيعة العلاقة بين العبد والرب، وتُظهر كيف أنّ الرحمة الإلهية لا تُلغي العدل، والعدل لا ينفي الرحمة، بل يتكاملان ليرسما صورة مُثلى للكمال الإلهي.

ومن ثمّ فإنّ اسم "الرحمن" يأتي بصيغة ترتبط بكثرة الرحمة وسعتها، وهو اسم خاص باللّٰه عز وجل لا يُطلق على غيره، فالرحمن هو ذو الرحمة الواسعة التي تشمل المخلوقات جميعها دون استثناء، المؤمن والكافر، البار والفاجر، الإنسان والحيوان والجماد، وهذه الرحمة تتجلّى في كلّ نَفَس نتنفسه، وكلّ قطرة ماء نشربها، وكلّ شعاع شمس يدفئنا، فهي الرحمة التي تسبق الوجود وتحيط به، وهي الرحمة التي جعلت اللّٰه يخلق الكون بقوانين رحيمة تحفظ التوازن وتُيسّر الحياة.

أمّا "الرحيم" فهو الذي يرحم عباده المؤمنين رحمة خاصة تمتد إلى الدار الآخرة، فهي رحمة مقترنة بالإيمان والعمل الصالح، رحمة تشمل المغفرة والعفو والجنة والنعيم المقيم.

وهذا التمييز بين "الرحمن" و"الرحيم" يُظهر طبقات الرحمة الإلهيّة، من رحمة عامة تشمل الجميع في الدنيا، ورحمة خاصة تشمل المؤمنين في الآخرة، فالرحمة الإلهية متدرّجة ومتنوعة، تبدأ بالشامل العام وتنتهي بالخاص المكرم.

ويأتي تكرار ذكر الرحمة بعد "رب العالمين" لتأكيد أنّ الربوبية الإلهيّة قائمة أساساً على الرحمة، فاللّٰه لم يخلق الكون ليعذّب خلقه، إنّما ليرحمهم ويهديهم، وهذا التأكيد يبعث في قلب المؤمن الأمل والطمأنينة، ويُذكّره بأنّ اللّٰه يُعطي قبل أنْ يحاسب، ويرحم قبل أنْ يعاقب.

وبعد استحضار الرحمة الواسعة، تأتي آية مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ لترسم مشهداً آخر، مشهداً لليوم الذي ينقطع فيه كلّ ملك إلا ملك اللّٰه، ويُصبح فيه الجميع عبيداً أذلاء أمام الملك الحق سبحانه، يوم فيه الامر كلّه للّٰه وبيده، فهو الواحد القهّار، لاتملك يومها نفس لنفس شيئاً، وفي هذا إشارة إلى انقطاع الوسائط والأسباب كلّها، وانكشاف الحقيقة المطلقة بأنّ الملك للّٰه وحده لا شريك له.

فما "يوم الدين" إلاّ تأكيد للعدالة الإلهية، فهو يوم الجزاء والمحاسبة، يوم تُوزن فيه الأعمال بميزان العدل الإلهي الذي لا يظلم مثقال ذرة، فهو اليوم الذي تتجلّى فيه حقيقة العدل الإلهي بأبهى صورها، إذ يُجازى كلّ إنسان بما عمل، خيراً كان أم شراً.

وقد يتساءل البعض هاهنا: لماذا يأتي ذكر العدل بعد الرحمة؟ أليس في ذلك انتقال مفاجئ من الرحمة إلى الخوف؟

وجوهر التفسير يكمن في كون هذا الترتيب يحمل حكمة بالغة، فالرحمة بلا عدل تُصبح إهمالاً، والعدل بلا رحمة يُصبح ظلماً، وأمّا الجمع بينهما فيُظهر كمال الذات الإلهية..

فقد خلقنا اللّٰه فهو إلهنا.. وعصيناه فستر علينا فهو الرحمن.. وتبنا فغفر لنا فهو الرحيم... ولا بدّ من أنْ يأخذ كل ذي حقّ حقّه فهو مالك يوم الدين.

فذكر العدل بعد الرحمة يُحقّق التوازن الروحي المطلوب، فلا ييأس العبد من رحمة اللّٰه، ولا يغترّ بها إلى حدّ التعالي عن الفروضات والتكاليف، فهو توازن دقيق بين الخوف والرجاء، وبين الطمع والحذر.

فالقرآن في جوهره يحمل منهجاً فريداً في التربية الروحية، ويقوم على التوازن بين الترغيب والترهيب، وبين البشارة والتحذير، وهذا ما نراه واضحاً في الفاتحة؛ فالرحمة تُبشّر والعدل يُنذر، والرحمة تُطمئن والعدل يُحذّر، وهذا التوازن ضروري للنفس البشرية التي تحتاج إلى الأمل لتستمرّ، وإلى الخوف لتستقيم، فالإنسان الذي يركّز على الرحمة وحدها قد يقع في التهاون والإهمال، والذي يركّز على العدل وحده قد يقع في اليأس والقنوط.

فيأتي قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) بعد استحضار الرحمة والعدل، ليُترجم هذا التوازن إلى موقف عملي، فالعبادة تنبع من معرفة عدل اللّٰه وخوف عقابه، والاستعانة تنبع من الثقة في رحمته ورجاء فضله، فالعبد الذي يعرف أنّ ربه رحمن رحيم يلجأ إليه في الشدائد ويستعين به في المهمات، والعبد الذي يعرف أنّ ربه مالك يوم الدين يعبده بخشوع، وهكذا تتحقّق العبودية الكاملة التي تجمع بين الحب والخوف، بين الرجاء والوجل.

وبعد أنْ يستحضر العبد صفات الرحمة والعدل، ويُحقّق التوازن الروحي في عبوديته، يأتي الدعاء الجامع(اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيم)، وهذا الدعاء هو ثمرة طبيعية لما سبق من التوازن، فطلب الهداية يُبنى على التوازن بين الرحمة والعدل، والمؤمن يسأل اللّٰه الهداية رجاءً في رحمته، وخوفاً من عدله، ويسأل الرحمة ليُعينه اللّٰه على الطاعة، ويُجنّبه الضلال والمعصية، فالصراط المستقيم يُمثّل التوازن، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء، ولا تطرّف في جانب الرجاء ولا في جانب الخوف، فهو الطريق الوسط الذي يجمع بين الخوف والرجاء، بين العمل والتوكل، وبين الأخذ بالأسباب والاعتماد على اللّٰه.

كما أنّ ترتيب الأسماء الحسنى في الفاتحة لم يكن عشوائياً، إنّما جاء بتدريج منطقيّ في التجلي الإلهي من الخلق للرعاية للحساب، فهو يبدأ بـ"رب العالمين" الذي يُشير إلى الخلق والإيجاد، ثم "الرحمن الرحيم" الذي يُشير إلى الرعاية والإحسان، ومن ثمّ "مالك يوم الدين" الذي يُشير إلى المحاسبة والجزاء.

وهذا التدرّج يعكس رحلة الإنسان من النشأة إلى النهاية؛ خُلق برحمة، وعاش برحمة، وسيُحاسب بعدل، فهي دورة كاملة تُظهر شمولية العناية الإلهية.

كما أنّ هذا الترتيب يحقّق هدفاً مهماً في تصحيح المفاهيم القاصرة، فمن ركّز على جانب الرحمة فقط واستهان بالعدالة الإلهية، تأتي آية مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ لتُصحح له المفهوم، ومن ركّز على جانب العدل فقط ويئس من رحمة اللّٰه، تأتي آية الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ لتفتح له باب الأمل.

لذلك ينبغي للمؤمن أنْ يحيا هذه المنهجية في حياته العملية، في عباداته، فيعبد اللّٰه وهو بين خوف ورجاء، يخاف عقابه فيتوب ويستغفر، ويرجو رحمته فيعمل الصالحات ويُحسن، ولا يتكاسل وهو ضامن رحمة اللّٰه، ولا ييأس وهو خائف من عدل اللّٰه، فعندما يُذنب المؤمن، يتذكّر عدل اللّٰه فيُسارع إلى التوبة، ويتذكّر رحمة اللّٰه فلا ييأس من المغفرة، ويخاف عقوبة الذنب ويرجو عفو اللّٰه، فيجد نفسه في حالة توازن تدفعه إلى التوبة النصوح.

ويحياها في تعامله مع الآخرين، فيُعامل المؤمن الناس برحمة كما يرحمه اللّٰه، ويُطبّق العدل كما يُحبّ أنْ يُعامله اللّٰه بالعدل، فلا يُفرّط في اللين فيُضيع الحقوق، ولا يُفرّط في الشدة فيظلم الناس.

وختاماً،

فإنّ سورة الفاتحة تحمل رسالة عميقة للإنسانية جمعاء، فهي تُعلّم الإنسان أنّ الحياة قائمة على التوازن بين العطاء والأخذ، بين الحقوق والواجبات، بين الأمل والعمل، وبين الرحمة والعدل، وهذا التوازن ليس مجرد مفهوم فلسفي، بل منهج حياة، منهج يُعلّم الإنسان كيف يكون رحيماً دون ضعف، وعادلاً دون قسوة، يعلّمه كيف يأمل في رحمة اللّٰه دون أنْ يتكاسل عن العمل، وكيف يخاف عدل اللّٰه دون أنْ ييأس من الرحمة.

فالإنسان الذي يعيش هذا التوازن يجد نفسه في حالة من السلام النفسي والاطمئنان الروحي، ولا يطغى الخوف عليه فيُشلّ حركته، ولا يطغى الأمل فيُفسد عمله، إنّما يعيش في توازن دقيق يُحقّق له السعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة.
فسورة الفاتحة، نبراس للتوازن بين الرحمة والعدل، ومنارة تُضيء للإنسان طريق الهداية، ومنهاج يُرشده إلى الصراط المستقيم، فسبحان من أنزل هذا القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان.

اللهم اهدنا الصراط المستقيم، واجعلنا ممن يخافك ويرجوك، ويعبدك كأنّه يراك، فإنْ لم يكن يراك فإنّك تراه، اللهم آمين.